الشيخ عن قبول الدعوة بكل لطف ووعده باللقاء في الغد في المحل ذاته فتفارقا على أمل المقابلة في الغد يفكر كل في صاحبه كأنهما يعرفان بعضهما من سنين حيث ان هذه البرهة الوجيزة التي قضياها سويا كانت كافية لتمكين عرى التعارف لا بل الصداقة بينهما ولاغرو فان هذا الامر يكثر حدوثه جداً بين الناس وحتى بين الحيوانات عند تجانس الدم والروح

— الفصل الثالث —

هل يوجد خير أو شر في الحقيقة ؟
أم إن ما نظنه خيراً لنا هو شر للغير والعكس بالعكس

في اليوم التالي في الوقت المعين اقبل صاحبنا الشاب نجيب وجلس على المقعد حسب المعتاد ولم تمض برهة قصيرة حتى حضر شيخنا وبعد تبادل التحية والسلام قال له نجيب والله ياشيخي اني لم اذق مرارة الانتظار مثل الليلة فقد كانت كل دقيقة منها بيوم وكل ساعة بشهر فتبسم الشيخ وقال وهذا ما كان عندي أيضاً ولنعد الآن إلى الحديث

من سياق كلامي لك أمس يتضح أنني تركت الدير

وعمري اثنتان وعشرون سنة وقد بلغت الآن السبعين فثمان وأربعون سنة قضيتها كما تراني الآن متجولا من بلد الى بلد فزرت معظم الاقطار واختلطت بجميع الشعوب من هنود وصينيين وعجم وعرب وزنوج ورحلت أيضاً إلى أوروبا وشهدت ما يسمونه عظمة المدن الحديث ومن هناك قيّض الله لي من استصحبني الى أمريكا حيث مكثت ثماني سنوات فبحثت ونقبت وراقبت فدهشت ولكن دهشتي لم تكن لامر جديد وقفت عليه ولو أن أشياء كثيرة يمكن عدها جديدة لاختلاف مظاهرها عند الناظر اليها سطحيا بل أن دهشتي هي لأني رأيت وتحققت بأن لاشيء جديد تحت الشمس أو بالاعم لاشيء جديد في العالم أجمع فالطبيعة واحدة وسننها واحدة تتمشى على أنظمة وخطط ثابتة واحدة والويل لمن عارضها فسبحان تلك القوة الخالقة المدبرة الفائقة فلا شيء يخلق نفسه ولا شيء يفنى بل أنه يخرج من الينبوع المعظم ويعود اليه ولو اختلفت طرق العودة بالتحول من شيء الى آخر حتى ظن بعضهم أن الفناء حاصل مع أن الحقيقة لا فناء بل تحول بل رجوع الى الاصل كما سترى فيما بعد

تتصارع الكائنات جميعها بعضها مع بعض سيان في ذلك الجماد والنبات والحيوان تحت تأثيرات شتى وعوامل مختلفة فتتبدل أشكالها وتتغير من حال الى حال مع توالي الزمن ومرور الايام ينظر المرء إلى هذا فاكان منه موافقاً له ولمصلحته وصحته ولراحته عده خيراً وما كان مخالفاً عده شراً مع أنه في الحقيقة لا يوجد غير أو شر إذا نظرنا للمجموع الكلي وللنتيجة القصوى وللسنن الطبيعية

سنة تنازع البقاء سنة طبيعية ولكنها في الانسان تدرجت معه حتى تولدت منها الانانية وعلى مصلحة الانانيه الفردية أو الشعبية أو العموميه الانسانية تكيف الخير والشر ومصائب قوم عند قوم فوائد واذا اردت يابني امثلة على هذا المبدأ أقول لك اني أنا مثل وانت مثل وما حصل وما يحصل لك مثل وكل انسان وكل حيوان مثل وكل ما في الطبيعة أمثال لذلك إذا حصرتها انحصرت واذا عممتها تعممت . تضيع أنت محفظة نقودك فهذا شر لك لأنك فقدت شيئا يمكنك به أن تزيد نعيمك ولذتك وراحتك أن رأسا أو بواسطة أن أدبياً أو ماديا روحيا أو جسمياً

فيجدها غيرك فيكون شرك خيراً للغير . في حقلك بقرة تدر عليك لبنا وتفيد ارضك وزرعك وفي الجبل بالقرب منك اسد جائع يأتي فيفترس البقرة فيأكلها ويشبع اشباله فموت البقرة يعد في العرف الحالي شرا عليها وعليك ولكن خير للاسد ولاشباله ولكن هل خسرت الطبيعة شيء كلا فبمجموعها توازنها باق . يحترق حي في مدينة فينقلب المهاجر الذي فيه الى حي آخر تخرب بقعة فيتحول ما كان يلزمها من الخيرات الى بقعة أخرى فيزداد خير هذه ببلاء تلك . تقوم حرب بين أمة وأخرى فتخسر هذه وتفوز تلك فشر الاولى خير للثانية ولكن يطغي البحر على ارض غير مأهولة فيغمرها وتزلزل الارض زلزالها فتغور جزائر وتظهر أخرى ولا تعد هذه الحوادث لا خيرا ولا شرا تنقض صاعقة فتميت شاة لامرأة عجوز فقيرة فيعد هذا الامر حادثا جللا وشرا مستطيرا ولكن تولد حيوانات شتى مفترسة وغير مفترسة وتعيش في الغابات البعيدة وتموت وتتقرض ولا يفطن لها احد فلا يعد وجودها او فناؤها لا خيرا ولا شرا . بالقرب من أحدى القرى يوجد

ذئب كاسر يسطو على ماشية الناس فيتعاونون على قتله ويعدون الفتك به خيرا عظيما ثم يجدون حيوانا نافعا مفيدا فيحسب وجوده نعمة . تنفجر عيون ماء غزيرة تجري منها انهار وتجف او تتحول من مجاريها الى مجاري أخرى ولا اهمية لهذا اذا كانت في بقاع لاناس فيها ولكن يرمي بعضهم حجرا في بئر ماء يرتادها الناس فيعد عمله شرا يستوجب العقاب . تنبت الاشجار والمزروعات في اراض غير مأهولة من الانسان وتزهر وتثمر فيأكل الطير والحيوان ثمرها ان كان هناك حيوان او طير او تتساقط على الارض بعد نضجها وتتحول الى تراب واسمدة ولا يعد هذا لا خيرا ولا شرا ولكن يكون في بستان يوسف شجرة تفاح يقطف منها زيد تفاحة فيعد عمله شرا وسرقة تستوجب القصاص . يربي الانسان الماشية ليأكلها وينتفع بلحمها وجلدها وعظمها وبكل ما ينتج عنها ويذهب الصياد الى الصيد فيقتنص الحيوانات والطير ويستعملها لما يتراءى له فيعد عمله خيرا عظيما ولكن اذا لسعت عقرب ولدا او لدغت نحلة انسانا او نقد طائر حبة حنطة من بعض حقول

الناس عد هذا العمل شرا . افليس هذا من الغرابة بمكان وهكذا مما لانهاية له . فمن هنا ترى يا بني ان الخير والشر ما هو الا زرع ونبت الانانية الانسانية حسب وجهة نظر الانسان فيما يتراءى له من الفائدة أذ ما معنى تحول الماء من جهة الى جهة للماء نفسه او ظهور ارض وغور ارض للارض نفسها او سقوط ثمرة من الشجرة او قطفها او اكلها من انسان او حيوان للشجرة ذاتها او وجود حيوان مفترس أو داجن أو عدم وجودهما هنا أو هناك .

فاجابه نجيب وقال يستفتح من أقوالك وبيانك أنه لا خير ولا شر البتة ولكن كيف توفق هذا مع تعاليم جميع الاديان وقد اتفقت جميعها على وجود الخير والحث على عمله ووجود الشر والنهي عن فعله ؟ فقال الشيخ اسمع يا بني لما نوق الانسان واسس جمعيته الانسانية فعاش قبائل فشعوبا فأمما ورأى ان عوامل كثيرة طبيعية تقاومه منها خارجية مثل الحيوانات المفترسة والسامة والقحل في الارض والصواعق والامطار والحر والبرد والثلوج والعواصف وخلافها ومنها داخلية مثل البغض والحسد وحب الانتقام

والكسل وحب الحصول على جنبي الغير وهلم جرا مما نشاهده فى انفسنا ونعلمه من ذواتنا اراد أن يحتاط للامر ويعد العدة لمقاومة ذلك حفظا لتلك الجمعية وتقوية وأنماء لها فاقتبس من غريزته الطبيعية ومما شاهده في اجناس الحيوانات سننا وطرقا سار عليها ولما ترقى في عقله وزاد في توهمه وضعف جسمه لترهفه في المعيشة وكادت الغريزة الطبيعية فيه ان تضمحل ولم تعد وحدها كافية لوقايته كما في بقية الحيوانات استعاض عنها بروادع وزواجر خيالية تصورها للاستعانة بها على حفظه وحفظ روابطه لذا تراه فى كل نواهيه ومسموحاته لم يقصد سوى مصلحته الخاصة او مصلحة الانسانية العامة ان رأسا او بواسطة غير ناظر الى خلافها البتة. بل أنه أذا نظر لغيره من الكائنات الاخرى فان ذلك يكون لتصور فائدة تعود اليه منها فعد نفسه السيد المطلق وكل الكائنات ملكا له لا بل عد نفسه الكل في الكل حرم القتل نفسه وفي جنسه واباحه في بقية الحيوانات . حرم السرقة في نفسه وفى جنسه واباحها فى بقية الحيوانات والاشياء فلماذا اذا يقتل الحيوانات ليأكلها وينتفع بما ينتج

عنها ولماذا يحلب اللبن من الماشية فيسرقه من صغارها ويأخذ العسل من النحل فيسلبها قوتها . حرم الظلم والاستعباد ولكنه يظلم الحيوانات ويستعبدها فيحملها نفسه وامتعته ويستخدمها في قضاء حاجاته حرم الزنا لانه بعد أن ضعفت او تلاشت فيه تقريباً الغريزة الرادعة التي تحتم على الحيوانات لحفظ كيانها عدم مجامعة انثاها الا في أوقات معينة وهو يطلب الجماع دائماً اضربه هذا الافراط ام لا لما أثاره فيه توفهه وتفننه وتأنقه في مأكله ومشربه وجب عليه ذلك التحريم لردعه عما يضر به وبني جنسه وحفظا لما اختطه لجمعيته من العوائد والنظامات وما تولد عنها من الغيرة وحب الاستئثار وارضاء لما يدعيه من العدل لئلا يتحمل زيد مثلا تربية ولد هو من صلب عمرو ومما يدلنا ايضاً على أن هذه السنن ليست طبيعية وان هذه التحريمات هي من وضع الانسان اننا نرى ذلك الانسان ذاته في كثير من الاحيان يثور عليها رغم ما حصنها به من الوعد والوعيد فيقتل بعضه بعضاً ويسلب بعضه بعضا ويسبي حريم بعضه البعض ويخرب ويدمر بلاد بعضه البعض كما يشاهد في كل حرب وفي كل

حادثة من هذا القبيل . فمن هنا تستدل على ان الانانية الفردية والانانية القومية والانانية العنصرية والانانية الانسانية هي التي تحرم وتحلل حسب ما يتراءى لها من المصلحة والمنفعة . يقولون ان الخير والشر معرفتهما محصورة في الأنسان فقط مع ان ما يفعله الانسان يفعله الحيوان ويساويهما فيه النبات والجماد فانظر الى الاسماك في الماء والى الحيوانات على الارض والى الطير في السماء تراها تقاتل بعضها البعض وتفتك بعضها ببعض وتأكل بعضها البعض وتتسابق على طعامها وتتسارقه كما يفعل الانسان وتقاتل الانسان وتفتك به كما يقاتلها وتقاتل بعضها وتفتك به وتفتك ببعضها وتسارقه متاعه كما يسرقها وتسرق بعضها . الا ترى يا بني ان الاسد اذا رأى انساناً أو كبشا في البرية انقض على ذلك الانسان أو الكبش وقتله واكله كما يفعل ذلك الانسان بالسبع اذا قوي عليه فيصطاده وهذا هو الثعلب يسطو على الدجاج فيأخذ منها ما يطيب له وهذه هي الدجاج ايضا تنقض على الحشرات في الارض والديدان فتأكلها وتفعل بها كما يفعل الثعلب . ما الفرق يا بني

بين سارق يهاجمك فيسرق مقتناك وبينك أنت تجد خلية نحل فتشتار عسلها وبين ذئب يهجم على طفلك أو شاتك فيأخذهما وبينك أنت تجد عش طير فتلتقط صغارها ما الفرق يا بني بين جار يسرق لك الفاكهة وبين الطير والحيوان تفعل فعل ذلك الجار. الا ترى ايضا ان ما فعله هذا الجار تفعله ايضا تلك الشجرة الغير المثمرة أو الحشائش البرية التي تنبت بين تلك الفاكهة فتظلل عليها وتأخذ من نمو ارضها فتقلل من حملها ولربما ايبستها. ما الفرق يا بني بين شعوب تثير على بعضها حروبا طاحنة تميت الولد وتخرب الديار وتذهب بالزرع والضرع وبين عاصفة تثور فتقتلع الاشجار وتجرف الامطار جميع مافوق اليابسة فتصبح البلاد قاعا صفصفا أو زلزال يحدث فتغور الارض بمن عليها من حي أو نبات أو جماد ويصبح عاليها أسفلها وتندثر جميع معالم ما كان كأنه لم يكن. وما الفرق أيضاً يا بني بين عصابة تدخل احدى القرى فتقتل وتسبي وتسرح وتمرح وبين وافدة من ميكروب قتال تدخل في الاجساد وتفعل فعل تلك العصابة. افلا ترى ان جميع هذه الافعال ولو اختلفت شكلا وفاعلا هي

في الحقيقة واحدة تساوت في عملها الممالك الثلاث الحيوان والنبات والجماد. فهذه هي ايضا الحيوانات وفيها الحقد والبغض والغيرة والغضب كما في الانسان وتؤثر فيها العادة كما تؤثر فيه ففيها البري وفيها الداجن يخاف الذئب من الاسد كما يخاف الانسان ويحقد الجمل على من آذاه كما يحقد الانسان فمن هذا يتضح ان الخير والشر عاملان يتساوى فيهما وأمام فعلهما جميع ما في الكون فما هما الا مظهر من مظاهر التصارع السلبي والايجابي ولم يكيفا بالخير والشر الا حسب تعريف المصلحة الانسانية

في البدء ابتدأ التنازع بين الاحياء على القوت والسكنى فانخذل الضعيف وفاز الاقوى وبدأ الكفاح والعراك بينهما ومن هذا الكفاح تولد الحقد والغيرة والحسد وحب الثأر والاغتصاب وماشا كل لان الفائز أحب أن يحتفظ بما فاز به ويستزيد منه والمغلوب أراد المدافعة وأرجاع ما أخذ منه والتمثل بما فعل الغالب فتأصلت العداوة وأصبح القوي يحاذر من الضعيف والضعيف من القوي فان الدببة مثلا وهي تطلب السكنى في أحسن المغائر كان الانسان يطاردها

ويزاحمها عليها فيقاتلها وتقاتله إلى أن يخلو أحدهما الآخر عنها فأصبحت تنفر منه وهو ينفر منها وما يقال عن الديبة يقال عن بقية الحيوانات التي بينها وبين الانسان عداوة فانه زاحمها في الاصل إما على قوتها أو سكناها أو أنه ناصبها العداء طلباً لراحته لمضايقتها له في أمر ما أو أنه أراد الفتك بها ليقتات بها حتى تأصلت العداوة في الفريقين يتوارثها الاحفاد عن الاجداد فهي والحال هذه قد نبتت عن الانانية لان الانسان اذا كان قد عادى الذئب مثلا فانه انما عاداه ليس لانه ذئب بل لان الذئب سابقه على قوته أو أقلقه في راحته أو سارقه متاعه وهذه العداوة دائمة طالما الانسان يشعر بمقدرة الذئب على أذيته حتى اذا حل العجز وجاء دور المنفعة تحولت العداوة إلى الرأفة والمطاردة إلى التأمين كما يرى ذلك في حدائق الحيوانات حيث يحميها ويعولها ويسهر على راحتها وهكذا تتجلى الانانية الانسانيه في كل شيء كما أنها تتجلى أيضاً بأوضح أشكالها ومقاصدها في جميع ديانات الانسان ومعبوداته فانه لم يدن لشيء ولم يعبد شيئاً الا ماتصور منه القدرة على أذيته فعبده تملقاً ودفعاً لضرره أو ما تصور منه

النفع فدان له استدراراً لنعمه

فسأل نجيب الشيخ فقال لقدأقنعتني ياشيخ بهذاالبيان ولكني استوضحك عن هذا الامر . اليس للانسان وقد ترقى كثيراً وتدرجت معارف بعضهم إلى حد بعيد في كل العلوم والاختراعات والابتكار والتصور أن يجد طريقة بها يمكنه أن يكيف حاله على قاعدة أخرى اعدل من هذه تفيده ولا تضر بغيره أن من جنسه أو من الحيوانات الأخرى وتوافق مايدعيه من الرقي في العقل والعدل والمعرفة فلا يناقض نفسه بنفسه وقوله بعمله ويوجد له حياة أهدأ وأهنأ حيث أنه بالحق ليست لهذه الحياة مهما طالت قيمة ماتستلزمه من المشاق والآلام ان نفسية أو جسدية . فأجابه الشيخ وقال إن وقت الذهاب قد حان ويكفيك الآن ماقد سمعته فتأمل به فموعد الجواب على ماسألت غداً فالسلام عليك والى الملتقى